« حَفْنَة أَسيَاد »

جلس على حافة النهر الهادئ ، يتململ فوق صخرة ناتئة فى قلب الماء ، ويرشق صفحته بفتات من الحجارة ، تضطرب تحت قدميه ، وترتعش بصورته الغاضبة أمام عينيه ، وفى صمت عاجز يصرخ ساباً ولاعناً حظه ، اللحظات تتساقط من عمره كأوراق شجرة جافة ، يقتلها الخريف ، ويُحييَّها الربيع ليقتلها فى صقيع الشتاء ولهيب الصيف الكئيب ، يهز رأسه ، وهو يكاد يصرخ من شدة الغيظ :

- إلى متى أيها الحظ اللعين ستترك رأسى مداساً للآخرين، ولماذا أكون دائماً كما لاأحب أن أكون ، وأكره ؟!.

رفع ناظريه إلى السماء الملبدة بالغيوم السوداء ، ثم مد بعينيه قوس بصر حاد إلى ماوراء السياج الحديدى فوق كوبرى السادس من أكتوبر، كان عشرات المارة يطوون أنظارهم فى ثناياه الداكنة ، أفلت تنهيدة حارة من جوفه المستعر ، تخالجها آهات ، وتمتمات متسائلة حائرة :

- أَتُراهم يفكرون كما أفكر ؟.

هب واقفاً والفكرة تراوده ، تقبضه تارة فى عالم مبهم يجهل كنهه ، ثم تفلته إلى عشوائية مقيتة ، ألقى التفافة أخيرة بطرف عينيه صوب النهر ، وقد تزاحمت فى نفسه ثورة من الخواطر السود ، همس ساخراً :

- ماأكثرالذين يريدون انتشال الخلاص لأنفسهم من أعماقك .

قبل أن يتقدم خطوة واحدة للأمام ، عصبت عينيه بصوتها الرخيم ويديها الناعمتين الدافئتين :

- كنت متأكدة من أنى سوف أجدك هنا بجوار النهر .

أزاح يديها بإهمال ، غمرها بنظرة كالحة كوجهه المغسول بالكآبة والحسرة :

- احمدى ربك لأننى مازلت بجواره لافى قاعه .

طوقت بيديها السمراوين يده الخشنة الأشد سماراً ، قبضت عليها بشدة ، ضمتها إلى صدرها الكاعب ، وسألته حزينة من أجله:

- خير ، ماذا حدث ثانية ؟.

انتزع يده ، أدار وجهه نحو النهر ، وقال وغصة تكوى حلقه :

- هـه ، الباشـا إيِّـاه والـذى خدمنـاه برمـوش أعيننـا حتـى صـار كبيـراً يشـار إليـه بالبنـان ، لقـد هـدد أمـى ثانيـة هـذا الصبـاح ، هيـه، والنـاس لايتحمسـون كثيـراً مـن أجـل عربـة فـول مدمـس ، ولـو كان إنسـاناً هـو الـذى يجرهـا وليـس حمـاراً ، هـه فمـا أكثـر الفـول فـى بلادنـا .

أطرقت آسفة ، عاجزة ، لاتدرى يأية كلمات يمكنها أن تواسيه بها ، صمتها لم يدم طويلاً ، سألته باهتمام شديد :

- هل مازلت منقطعاً عن عملك ؟.
- هه عملى أسود ، هل تسمين الهوان عملاً !.
- يجـب أن تحنـى رأسـك قليـلاً حتـى تمـر عاصفـة الحيـاة الضاريـة .
- تقصدين حتى تمر النعال القذرة الملطخة بأرواث البهائم.
- آه ، يالـك مـن غبـى مكابـر يالحظـى التعس فى زوج المستقبل الكئيب .

قالتها ممزوجة بضحكة رقيقة ، ولكنه تجاهل ذلك تماماً :

- أى مسـتقبل تعنـين ، إخلعـى ملابـس المدرسـة هـذه ، دبلـوم التجـارة أو حتـى البكالوريـوس لـن يفيـدك فـى شئ،سـلينى أنـا .

تراجعت إلى الوراء مبهورة الأنفاس ، تزعجها نظراته الشيطانية ، بصوت مبحوح قالت هامسة والخجل يقتلها :

- أجننت ؟!.

- دعك من الشقاء مادامت الأشياء كلها قسمة ومكتوب كما تقول أمى ، فمن لايستحق أخذ أكثر كثيراً ممن يستحق .

- لاتكفر .

نظر بعيداً إلى لاشئ ، تطلع إلى نسور السماء :

- أمثالنا نهايتهم فى حواصل هذه الطيور ، لامقابر لدينا تواريا بعد الموت ، سوف يتركوننا هلكى فى العراء .

تقدم نحوها ، تراجعت إلى الوراء ، أطبق عليها بعينين نهمتين زائغتين ، وبصوت تخنقه عفونة الرغبة قال وهو يتلمظ :

- تعالي نفعل شيئاً مجدياً .

صارخة :

- ارفع يديك عنى .

دفعته بشدة ، وشلال من الدموع يتفجر من خبء عينيها الناعستين بالفطرة ، أردفت متحسرة ، وهى تتعثر إلى الوراء فى دهشتها :

- لقد كنت أذكر اسمك حتى الثمالة ، الآن سوف أفعل المستحيل من أجل نسيان هذا الاسم القذر .

انصرفت مهرولة ، وعلى أثرها انطلق الظل مرتعشاً ، وديس فى زحام المدينة الكبيرة تحت أرجال المارة وإطارات السيارات الفارهة ، هكذا بدت له الصورة وتجمدت .

فى حنايا الأفق الدامى كانت الشمس تسبح غارقة فى بحر الغروب العظيم ، ظلوا يلاحقونها بنظراتهم المتوجسة خيفة حتى دق ظلام الليل أوتاده فى أعينهم ، كانوا يكتمون أنفاسهم، ويتحركون بهدوء وحذر بالغين ، لقد أقسم وتوعد بأنه سوف يفرغ فيهم رصاص مسدسه ، وسوف يحيل هذا المكان الخانق إلى مقبرة دامية ، مازالت صرخات التهديد الهستيرية تتردد فى حنايا الذكرى وصداها ، صورته القبيحة ملء الأعين ، وأنشوطة تعدم نبضات قلوبهم ، يرتجفون رعباً،يسدون مسامعهم أمام طلقات لسانه القاتلة:

- سوف أدهسكم كلكم بسيارتى يابائعى الفول الأوباش ، ارحلوا عن جنتنا التى لم تخلق لأمثالكم ، انكم تلوثون أنظارنا بهيئاتكم الرثة ، وتخنقوننا برائحتكم الكريهة ، وأصواتكم اللعينة .....

تلافيف الزمان حول عقارب الساعة تتعقد بأساريرهم ، المهلة المعطاة لهم أوشكت على النفاذ من حلق الزمن ، اقتربت منه واجفة، جعلت تمرر أصابع يدها وتمسح على شعيرات رأسه الفاحمة السواد ، وتهمس إليه راجية :

- أشر علىّ يابنى ، ماذا سنفعل ، الوقت يمضى كالبرق الخاطف ، والباشا الله يسامحه لايرحم .

صمتت برهة ثم أردفت متسائلة بسذاجة بريئة :

- هل فى مقدوره حقاً أن يشردنا ، ويقتلنا ، وبين أيدينا أوراقنا الشرعية التى تحمينا ؟!.

- هه ، بل يسجننا أمواتاً أيضاً ، إنه يطبق القانون ياسيدتى.

- أى قانون هذا ، أتخرف ؟!.

أشخصه المنظر الذى تراءى له دفعة واحدة ، الحياة كلها فى صورة سوداء ، همس قائلاً :

- إنه القانون السرى للحياة ، فهل لديك أدنى اعتراض ؟.

منزعجة ، تكاد تلفظ أنفاسها الأخيرة صرخت :

- ياستار يارب ، وما العمل ؟!!.

طالت لحظة الصمت وكأنها قد ألقت قنبلة وليس سؤالاً بلاجواب ، كان العجز هو لسان حالهم جميعاً ، الصغار والكبار معاً، أخيراً قطعت حبل الصمت موجهة حديثها إلى الكل بنبرة آمرة :

- سوف نلم أغراضنا ونمضى من هنا مع شعاعات شمس الصباح الأولى .

ثم أكملت حديثها بنبرة تشنجية وهى تنكس رأسها قائلة ، وتمسح دمعاتها اللؤلؤية بظهر يدها :

- وليحيا العالم كله نجاسة مأساتنا .

قال بعناد وهو يخترق بعينيه شعلة اللهب المنبعثة من المسرجة الزيتية فى الغرفة الضيقة :

- لن أرحل معكم ، اذهبوا أنتم ، وسأذهب أنا إلى ، إلى لاشئ.....

دقت على صدرها بكف يدها ، المنديل المشجر المعصوب على رأسها حتى كاد يخنق رأسها المليئة بالأفكار المزعجة ، شهقت شهقة عميقة ، لاتصدق ماسمعته للتو :

- ماذا ؟! ، هل ستتركنى وهؤلاء البنات نمضى وحدنا فى هذه الغابة الكبيرة الموحشة ؟! .

أجابها ببرود الضياع :

- لاسبيل أمامى غير ذلك .

صفعته على وجهه ، بصقت صرخاتها فى ككل مكان ، ودنت منه كالمجنونة ، هامسة ومحملقة العينين :

- أنسيت ماحدث لأختك ، لقد غرر بها الباشا بحجة أنه سوف يصنع لها تمثالاً كبيراً اسمه « بقايا عذراء» ، فقتلها منتحرة مثل خرقة بالية.

لف ودار فى المكان كحيوان حبيس ، وقال والحيرة تتماوج بأطراف لسانه الجاف :

- أنتِ تخمنين من أوهام رأسك ، ثم أنه ماباليد حيلة .

- ليكن،أَوَتريد لشقيقاتك الصغريات مثل هذاالمصيرالأسود.

- هه قسمة ومكتوب ، أليس هذا هو كلامك ؟.

- يمكننا أن نكتب بأيدينا القسمة والمكتوب .

بعينين غير مركزتين انتبهتا فجأة ، بدا كمن لُطِّمَ على خديه لطمات لاحصر لها ، راح يردد ماسمعه للتو شارداً ، متسائلاً :

- يمكننا ماذا ؟!!.

تركته زاهداً فى «ماذا» هذه ، لساعات طوال يرددها ، ويسبح فى أعماقها ، وأبعادها اللانهائية ، وقد انزوت جانباً تلملم أمتعتها القليلة فى صندوق خشبى بسيط للغاية ، والدمع يسيل دماً سخيناً على وجنتيها ، ثم استدارت إليه وهى تحذره بسبابة يدها :

- لاتتخل عن واجبك نحونا على الأقل لأننا بشر .

فرد قائلاً بذات النظرة الشاردة التى تملكته لسويعات :

- كلما رسمت طريقاً للحياة ، خلقوا لىّ ألف طريق للموت واليأس والفشل ، هه إننا ضائعون لامحالة ، بىّ أو من غيرى ، فلماذا أكون أنا الملاك المُخَلِّص فى عالم كله شياطين دنيئة .

كفكفت دموعها ، وهى تحاول أن تبدو متماسكة بوسع طاقتها :

- كان يمكننى أن أفعل مالايتصوره عقل ، المستحيل نفسه ، لولا السؤال القاتل من لهؤلاء الصغيرات غيرى بعد اللّه .

- .....

من رأى ذلك فى تلك اللحظة العصيبة ، لتصور للوهلة الأولى أن امرأة تخاطب حجراً صوان ، لاحياة فيه ولاروح ، سحبت نفساً عميقاً ، وشرعت تواصل لملمة بقية الأشياء المتناثرة هنا وهناك ، وقد أردفت قائلة وهى تؤكد على مخارج ألفاظها بالحسرة والمرار:

- حسناً ، سوف أعود بلارجعة إلى بلادنا فى الأرياف ، قريتنا التى تركتها منذ عشرات السنين مع شيخ البلد المرحوم جدك، بعد أنا باع أرضه وابتاع لنفسه ولنا الهوان على هذه الأرض الرهيبة ، المزدحمة من غير جدوى .

صمتت لحظة بدت من طولها وكأنها الدهر كله ، مسحت الدموع عن وجنتها وجانب أنفها الدقيق بظهر يدها المعروقة ، المدقوقة بوشم العزة والكبرياء ، ثم واصلت كلامها وهى تتصنع اختلاجة ثبات مفتعلة :

- كفانا مانلنا من فضائح فى هذه البلاد .

شاردة ، تتمتم هامسة للريح المتطاير فى كل الأصقاع ، يتدانى منها خلسة حتى يسمعها ، يكاد يتسلل كالأثير عبر أسلاك إهابها الشائكة ، يسمع الحوار الدائر فى أعماقها :

- سوف أجعل من اسمك وذكراك مثاراً للبطولة والفخار ، سوف أمارس أحلامى جهرة مادام الواقع قيداً ثقيلاً على أنفاسنا .

نظر إليها مندهشاً وهو يكاد يعدم أنفاسه ، وقدرته على الكلام:

- بطولة مَنْ؟! .

سرحت بعينيها ثانية فى سماء أحلامها ، تصرخ بلسان حالها فى جموع أهل قريتها بصوت أقض مضاجع النيام ، وأقلق الموتى فى قبورهم :

- ياأهل البلد ، لقد ضاع منا كل شئٍ فى البندر ، شيخ بلدكم وأولاده وأحفاده ، ابحثوا عنهم على الأرصفة ، فى الخرائب، وأمام السيدة والحسين ، شئ لله ياأسيادنا ، شرفاء الفقراء يحترقون ، لقد بنوا الأبراج العالية بأيديهم وسكنوا أرصفتها ، صنعوا حفنة من الوحوش التى تركب السيارات الفارهة ، الحقوهم قبل ثلج الشتاء ، ونار الصيف ، وتساقط أوراق الشجر فى الخريف ، وليكن الربيع .

نظرت إليه ، تجيل أحلامها فى حنايا وجهه ، تحيله إلى آدمى من غير أن تنطق بكلمة واحدة :

- هاهو ذا ابنكم البار الشجاع ، وقف كالجبل الكبير فى وجه الباشا ، بصدر عريض وعينين تقدحان شرراً ، لم يأبه لرصاصات الظلم والقهر .

علت صرخاتها ، تتردد فى أجواز الفضاء الرحب ، وتقارع نجوم السماء ، وتقرع أجراس النفوس :

- أبوزيد الهلالى لم يزل حياً ، أبوزيد زمانه لم يمت .

مـازال صـوت منشـد مقهـى القريـة يتـردد فـى حنايـا ذاكرتهـا، تصغـى إليـه نعسـانة ورأسـها مسـتوية فـى حجـر جدهـا العطـوف: «ومَنْ يجهل رجال الهلايل» ، « وماظالم إلا ويبتلى بظالم» ، «أبوزيد زمانـه مامـات».....

ظلت ترددها حتى وجه النهار ، العبرات تخنقها ، وقد توسدت ذراعها نائمة وهى تبكى ساخرة :

- سوف يقولون أن ام السعد مجنونة .

يسمعها جيداً ، بصدق ، لاينطق ببنت شفة .

أطل الفجر بعينيه الخاشعتين من وراء سجف الليل ، لحظات الترقب القاتلة ، والصبر الذى نفد صبره ، وكاد يشق الصدور عصبياً مجنوناً ، وكل شئ يهمس فى آذان القدر متى قدرى ؟!.

أفاق من شروده الطويل ، نظر فى المرآة ، رأى شبحاً قبيحاً ، قميئاً ، يشع العجز من عينيه ، اقشعر بدنه وهو يغرق ويغرق ثم يذوب كقطعة المِلح فى أعماق البحر الكبير ، كأن شيئاً لم يكن ، هباءة وتلاشت ، كلب وراح ، أفزعته خواطره :

- يالها من نهاية رخيصة !.

ثم ازداد حرصاً وهمساً حتى لايسمعه أحد :

- تُرى ماشكل النهايات العظيمة ؟!.

انتبهت على صوت عالٍ يهزها من كتفها :

- تذاكر ، تذاكر ياحضرات .

صوت العجل على القضبان يقعقع قعقعة مدوية ، القطار يرتج ارتجاجات شديدة ، تخضخضت لها الأجساد على الأثر فى التو واللحظة ، فى ذيل القطار عربة حقيرة درجة ثالثة ، مزدحمة بالعائدين ، المنهكين ، مدت يدها بالتذاكر ، شاردة فى دمائه المنثالة على وجهه الأسمر البسيم ، عيناه تسبحان فى لُجة من الدم ، دفنت رأسه بحنان فى طوايا صدرها الناشف ، أجهشت بالبكاء ، تمسح شعر رأسه الذى تغطيه عَفرة مخضبة بحمرة الدماء اللزجة ، يهمس وترصد همساته بالكاد :

- لقد آن للصفر أن يتحرك قليلاً ناحية اليمين .

يبتسم :

- جئت تصيبه أصابك ، قسمة ومكتوب ياحاجة .

يختفى شيئاً فشيئاً وراء سُتر عالمه الآخر الجديد ، تتلاشى كلماته كالدخان !.

●●●